ظاهرة العولمة ومساراتها

بين المقاربة الأيديولوجية والمقاربة الحضارية

عبد العزيز برغوث*

المقدمة

يتناول هذا البحث تحليل ظاهرة العولمة وبعض إشكالاتها الأيديولوجية والمنهجية والمعرفية والحضارية العامة. ويحاول البحث النظر في مفهوم العولمة، واستكشاف أبعاده المختلفة في إطار أكثر شمولاً، ووفق رؤية حضارية أكثر تكاملاً. ويهدف البحث إلى تقديم بعض المداخل التي تصلح لتطوير مقاربات أكثر علمية وموضوعية لمسألة العولمة وتأثيراتها. ويركز البحث على بيان ضرورة صياغة مقاربة حضارية للعولمة، تسمح بتحقيق التوجيه الحضاري لمضامينها ومساراتها وأنساقها وأهدافها، بعد أن غرقت وارتمت في أحضان أنصار التوجيه الأيديولوجي المصلحي على حساب المصالح الحضارية الإنسانية العليا في كثير من الممارسات والفعاليات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وليس من شك في أن موضوع العولمة أصبح من أهم الموضوعات الأكثر تداولا بين الناس في ظروفنا العالمية الراهنة، فسواء تعلق الأمر بالدوائر الرسمية، أو الشعبية، أو بالدوائر الفكرية، أم الثقافية، أم السياسية، أم الاقتصادية، أم الأمنية، أم الإعلامية، أم التقنية، أم غيرها، فمسألة العولمة أصبحت تلقي بثقلها على الوعي والفكر الإنساني بحثاً عن الفهم والتفسير والتوجيه المناسب والصحيح لقواها وفعاليتها، التي لم تعدْ تحت السيطرة الكاملة لمجتمع أو دولة بعينها. وبدأ الإنسان العربي والمسلم، كغيره من

* أستاذ الفكر الإسلامي في الجامعة الإسلامية العالمية/ ماليزيا. hadharah@hotmail.com

شعوب العالم، يستشعر خطورة الموقف أمام هذه الظاهرة الفاعلة، حتى كأن الإنسان المعاصر يفكر في بعض أحيانه أن مصيره ومصير مجتمعه وثقافته وحضارته قد أصبح بين يدي ما ستفرزه هذه الظاهرة والعملية التاريخية الحضارية المعقدة من توجيه وآثار وثمار. كما أن الإنسان اليوم أصبح يستشعر المخاطر الجمة التي بدأت تبرز نتيجةً لحركة هذه الظاهرة وللنسق الذي تتبعه في سيرها في مختلف المجالات.

يتبع البحث الحالي منهج تحليل النصوص واستقرائها بغرض معالجة الإشكالية الأساسية المتمثلة في تطوير المنظور الحضاري المتكامل في مقاربة العولمة ومحاولة تفسير طبائعها ومساراتها، كما يعالج قضية إمكانية توجيه العولمة لتتحول من معطى أيديولوجي يوظف من أجل تحقيق غايات أيديولوجية مصلحية غربية في الأساس، إلى معطى حضاري يوظف من أجل تحويلها إلى كسب حضاري إنساني يكون في خدمة الإنسان عموماً.

ولغرض المعالجة الموضوعية للإشكالية قُسم البحث إلى مجموعة من المباحث تبدأ بتقديم وصف تشخيصي أولي لحقيقة العولمة وطبائعها، ثم يعرج على تقديم عرض مختصر لحقيقة العولمة ومداخل مقاربتها في كل من النموذج الحضاري الغربي والنموذج الحضاري العربي الإسلامي القائم. ومن ثم يعرض البحث للأنواع الثلاثة للعولمة؛ وهي: العولمة الأيديولوجية، والعولمة العلمية الأكاديمية، والعولمة الحضارية. وفي الأخير يناقش البحث مسألة العولمة الحضارية بوصفها مدخلاً ضرورياً لتوجيه العولمة الحالية، ومحاولة بناء منظور حضاري عالمي متكامل لفهم الواقع الحضاري المعولم الذي تمر به الإنسانية مجتمعة.

أولاً: وصف تشخيصي أولي لظاهرة العولمة

تبدو ظاهرة العولمة في بعض أبعادها المختلفة كأنها تقع في العمق من التجربة الحضارية للإنسانية المعاصرة، وتقع في المركز من اهتمامات قوى الوعي والفكر والسياسة والثقافة في مجمل بلدان العالم. والعولمة عند البعض تتجلى وكأنها تعبير

صارخ عن نوع من التحول الفكري والحضاري المفصلي الضخم[1] في واقعنا المعاصر، وفي وعينا ومفاهيمنا للأشياء والأفكار والأشخاص والجغرافيا والتاريخ. والباحثون المتضلعون في مسائل العولمة وشبكاتها المفهومية المعقدة، يحاولون جادين إثبات أن الحضارة الإنسانية والثقافة البشرية في ضوء العولمة ستؤدي إلى ميلاد واقع حضاري كوني معولم[2] (هو الآن في بعض أطوار تشكله). وهذا الواقع سيتسم بسمات، ويأخذ صوراً وصيغاً غير معهودة في كثير من جوانبها، أدنى ما يقال عنها إنها ستخلق فجوة ضخمة بين مقاييس الوعي ومعايير الاتصال الإنساني القائمة اليوم، ومقاييس ومعايير ذلك الواقع المعولم في ثقافاته وقيمه وأديانه ولغاته واتصالاته وعلاقاته واقتصاداته وسياساته وتقنياته. ويعبر لنا أحد المشتغلين بالعولمة عن هذا الواقع بقوله:

ربما تكون أحسن مقاربة لمفهوم العولمة هي تلك التي تحاول أن تحدد إلى أين تتوجه العولمة، وما هي نهاياتها، وماذا سيكون حقاً تصورنا للمجتمع المعولم، أو كيف سيبدو العالم عندما يصبح معولماً؟ ففي العالم المعولم سيكون هنالك مجتمع إنساني واحد، وثقافة إنسانية واحدة تشغل العالم كله. هذا المجتمع وهذه الثقافة الإنسانية لن تكون بالضرورة متناغمة ومتكاملة بشكل تام، رغم أننا نستطيع أن نتصور ذلك. وبالأحرى سيتوجه هذا المجتمع وهذه الثقافة إلى مستويات عالية من التمايز، والتعددية المركزية والفوضى. لن يكون هناك حكومة عالمية مركزية، تنظيمية، ولن يكون هناك نسق متماسك من الوصفات والتفاضلات الثقافية. ومهما يكن التوحيد الثقافي فإن هذه الثقافة الموحدة ستبقى مجردة، وتعبر عن التسامح من أجل التنوع والاختيار الفردي. في العالم المعولم سوف نكون غير قادرين على توقع الممارسات والتفاضلات الاجتماعية على أساس مواقع جغرافية، وبنفس الحد يمكن أن نتوقع العلاقات بين

[1] هناك بعض من لا يرى هذا التأثير للعولمة، ويعدّها مجرد تطور طبيعي للواقع الحضاري الإنساني.

[2] Spretnac, Charlene. *The Resurgence of the Real: Body, Nature and Place in a Hypermodern World* (New York: Addison- Wesley, 1997), p. 11.

المناطق النائية أن تقع، كما هو الحال بالنسبة للأفراد المتقاربين أو المتجاورين.[3]

والعولمة بهذا المعنى، وبهذا النسق التحولي العالمي، تؤكد لنا أن هنالك تغيرات ذات حجم معتبر تتم في تركيبات الوعي، وقوانين التثاقف، وطبائع العمران، وأنساق الاتصال الإنساني، ومفاهيم العلاقات الدولية، وقيم الحوار الحضاري بين الأمم والشعوب. وهكذا تفرض العولمة وقائع وأحداثاً وقيماً قد تكون جديدة، وقد تكون قديمة متجددة، وقد تكون غير ذات أهمية، وقد تكون حتمية تاريخية صارمة ومرحلة تاريخية عابرة، أو حقلاً للتجربة والممارسة الإيديولوجية والاستعمارية أو مجالاً للممارسة الحضارية الإبداعية.

وأيّاً ما كان الأمر فإن القضية الثابتة هي أن العالم في مجمله يشهد تحولات معينة سواء كانت سلبية أو إيجابية، آنية أو مستقبلية، بسيطة أو مركبة. والعولمة قد استطاعت -عن تخطيط أو عن غير تخطيط- أن تفكك منطق السكونية، وثقافة الانعزال، ونفسية الانكفاء على الذات، وجعلت الثقافات والحضارات الإنسانية تتحرك وتراجع وتفكر وتستعد للتعامل والتفاعل مع ما يحدث. وبعبارة أخرى: لقد أدخلت العولمة الكثير من الناس -إن لم نقل: الجميع- في عمق الحركة والتدافع والانخراط السلبي أو الإيجابي فيما يحدث في العالم اليوم من معضلات عالمية خطيرة ومعقدة، فقد أصبح الناس يتحدثون عن العولمة، سواء عن فهم أو عن غير فهم لها- تقريباً في كل مكان، وفي كل مجال. فهذا التعميم لظاهرة العولمة، وهذا الانتشار السريع والمتعاظم لها يُعدّ في ذاته نوعاً من الحركية الفاعلة لها ولقيمها. والكثير من الباحثين حين يتحدثون عن العولمة يصورونها بوصفها الحاجز الفاصل بين مرحلتين حضاريتين في حركة الوعي الإنساني ومساره. وهذا ما ذهب إليه مثلاً عالم السوسيولوجيا المعروف (Anthony Giddens) عندما قال: "إن ظهور نظم معولمة أو عالمية يعني أن العالم الذي نعيش فيه مختلف تماماً عن ما سبقه من المراحل

---

3 Waters, Malcolm. *Globalization*, (London: Routledge, 1995), p3.

والعصور."[4] وكأننا نحن البشر نعيش في واقع حضاري قائم، ويتطلب منا الأمر (ضرورة) أن ننتقل بسرعة إلى واقع حضاري عالمي معولم تتغير بموجبه تصوراتنا ومفاهيمها ومذهبياتنا الكونية، مما يستتبع تغيرات في جميع نظم حياتنا، وهذا بدوره يستتبع تحولات في نفسيتنا وثقافتنا وفعلنا الحضاري عامة.

والعولمة حين يراها البعض كأنها تدفعنا دفعاً -في كثير من الأحيان- نحو تغيير أنظمتنا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية والتقنية، وحين تدخلنا في تناقضات وصراعات مع أنظمة وعينا وتفكيرنا وتثاقفنا، وحين توحي لنا أننا بوضعنا القائم نعيش التخلف والاستبداد والقهر والتفكك والفقر والحروب والأمية وغيرها، فهي في الحقيقة لا تستهدف أن تقدم لنا درساً بليغاً في القيم والأخلاق، ومشروعاً حضارياً يعيننا على استعادة فاعليتنا الاجتماعية، وتوجيهاً ثقافياً يساعدنا على تحقيق الحوار الحضاري المبدع مع الأمم والشعوب والحضارات في عصر العالمية، ولكن العولمة تستهدف وضع تحدّ حضاري عالمي أمام الإنسان المعاصر، بما في ذلك الأمة العربية والإسلامية، وهذا التحدي يتوجه بالضرورة -استناداً إلى طبائع العولمة- إلى عمق الوعي والشخصية والقيم ونظم المجتمع، وإلى الأساسيات الوجودية والمعرفية والسلوكية والحضارية لهذا الإنسان. ولهذا السبب فإنه من غير المنطقي المجازفة بالقول: إن العولمة مسألة عارضة، ولكن ينبغي النظر إليها بعمق وخاصة من المنظور الإسلامي، حين يكون العالم الإسلامي جزءاً أساسياً من هذا العالم المعولم اليوم. وعلى حد قول إبراهيم أبو ربيع: "لا يمكن لأي فكر أن يسبر غور إشكاليات العولمة ما لم يستوعب بصورة كاملة الاتجاهات الحديثة في النظرية النقدية والفكر الاجتماعي والاقتصادي المعاصر، وعلاقاتها بالفكر الديني في العالم الإسلامي والغربي، ورد الفعل الأخلاقي الأكيد الذي يجب أن يقدمه الفكر الإسلامي المعاصر لتأكيد حيويته وضرورته،

---

4 Anthony, Giddens. *Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age*. (Cambridge: Polity Press, 1991), p. 225.

مستعيناً بالأدوات النقدية، وبمنطق الوحي لتقديم إجابات شافية لمشكلات العالم الإسلامي المعاصر."[5]

والعولمة حين يراها آخرون كأنها تدفعنا دفعاً نحو الالتقاء والتوحد[6] والتفاعل والتكامل والتحاور والاتصال والتعاون والتحضر والتقدم والمواجهة الجماعية لمشكلات الحروب والبيئة والفقر والصحة والتكنولوجيا والمعلوماتية والجريمة والصراعات الإقليمية والدولية وغيرها، فهي كذلك في نهايتها المعرفية نوع من التحدي الصارم والشامل للإنسان ومنطلقاته وقيمه الوجودية والحضارية.

والعولمة حين يراها البعض كذلك، وكأنها تدفعنا من جهة نحو الصراع والتفكك والهيمنة، ومن جهة أخرى إلى التكامل والتعاون والحوار. ففي كل هذه الحالات وغيرها ينبغي أن ندرك أن تحدي العولمة ليس سطحياً، وليس عابراً، وليس جزئياً، بل هو عميق وشامل. فعندما تضع العولمة الإنسان ذاته في عمق التحدي والمواجهة، فإن الثقافة والشخصية والدين والتراث والتاريخ والحضارة والوجود المعنوي والاعتباري لهذا الإنسان يصبح هو محل النـــزاع وموطن المواجهة، وليس فقط التجليات السياسية والاقتصادية والإعلامية والمعرفية والتقنية. ولهذا السبب فإن السؤال الأساس هو: هل هذا الإنسان يدرك طبائع العولمة ونوعيتها؟ وهل هذا الإنسان يمتلك القدرة والمؤهلات للتفاعل المبدع معها وتوجيهها لصالحه؟

وفي ضوء هذا التحديد سيحاول هذا البحث إبراز بعض طبائع العولمة كما تطرح اليوم في المجتمعات الغربية وفي المجتمعات العربية الإسلامية.

---

[5] أبـــو ربـــيع، إبراهيم. "العولمة: هل من رد إسلامي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، السنة السادسة، ع 21 (2000)، ص12-13.

[6] E. J. Hobsbawm, "The World Unified", *The Globalization Reader*, Edited By: Frank J. Lechner and John Boli, (USA: Blackwell Publisher Inc, 2000), pp. 52-56.

ثانياً: مداخل لدراسة طبائع العولمة من المنظور الغربي[7]: (خلاصة أولية)[8]

إن المراجع لبعض أدبيات العولمة وأطروحاتها العامة، يستطيع أن يميز وجهات نظر مختلفة ومتباينة حولها؛ فمنهم من يقبلها قبولاً تاماً، ويدعو إليها بكل الوسائل والإمكانات، ومنهم من يرفضها رفضاً تاماً، ويواجهها مواجهة صريحة صارخة ومنهم من يتوسط بين الأمرين فيرى واقعيتها، ولكن يحتاط في دراستها، ويبحث في مقاييس فهمها والتعامل معها وتوجيهها بما يصلح سواء للمجتمعات الغربية أم المجتمعات الإنسانية عموماً. ولئن كان الأمر بهذا التشعب فإن هناك أطروحات ومداخل في تعريفها. ويمكننا أن نميز بين مجموعة مقولات في النظر إليها وهي:

مقاربة العولمة بوصفها تكاثفاً في العلاقات الدولية: وهنا ينظر إلى العولمة على أنها وصف آخر لمفهوم العلاقات الدولية بين الدول، وتعني بصورة خاصة الزيادة الملحوظة في تبادل العلاقات الدولية وتعاضدها وتسارعها بصورة متشابكة، يتعذر فيها الفصل والعزل لهذه الدول بعضها عن بعضها بوصفها وحدات مستقلة للتحليل كما كان الأمر في الزمن الماضي. وفي هذا السياق يرى بعض الباحثين في العولمة أن "حجم ونمو حركة التجارة واستثمارات رؤوس الأموال بين الدول"[9] هو التعبير المحس عن العولمة الحالية. كذلك الحركة المتسارعة والواسعة للأشخاص والأفكار والوسائل هي التعبير الآخر عن هذه العولمة. وبهذه الصورة تتزايد وتتكاثف وتتسارع حركة الاتصالات والعلاقات بين الدول بشكل يجعل صلتها وعلاقاتها متقاربة مما يمكن تسميته بالعولمة هنا.

---

7 من أجل فهم أعمق لظاهرة العولمة في المنظور الغربي راجع:
Geider, William. *One World, Ready or Not: The Manic Logic of Global Capitalism* (New York: Simon and Schuster, 1997); Mitchell M. *Waldrop, Complexity: the Emerging Science at the Edge of Order and Chaos* (New York:Simon and Schuster, 1992); Paul Hirst and Graham Thompson, *Globalization in Question: The International Economy and the Possibilities of Government* (Cambridge: Polity Press, 1996); Jan Araft Scholte, *Globalization: A Critical Introduction* (New York: Palgrave, 2000.).

8 For further details see, The Globalization Reader.

9 Paul, Hirst and Grahame, Thompson. “Globalization: Ten Frequently Asked Questions and Some Surprising Answers”, Soundings, vol. 4 (Autumn), 1996, pp. 47-66.

مقاربة العولمة بوصفها الخصخصة الرأسمالية: هنا يُنظر إلى ظاهرة العولمة على أنها تلك العملية المنهجية المنظمة التي تعمل من أجل رفع القوانين والحواجز والعوائق التي تضعها الدول على حركة الأشياء والأشخاص والأفكار، وذلك من أجل الوصول إلى واقع اتصالي وتعاملي مفتوح وخالٍ من التضييقات والإجراءات والقوانين التي تعيق النشاط الاقتصادي وحركة الأموال والسلع والخدمات. وهذا الذي يعبر عنه بعض المشتغلين بالعولمة بعملية البحث عن التكامل الاقتصادي العالمي.[10] ومن تجليات هذه النـــزعة في النظر إلى ظاهرة العولمة التقليص من القوانين والإجراءات التي تحدّ من التجارة والنشاط الاقتصادي والمالي العالمي، وكذلك التقليص من الضغوط والقوانين المفروضة على تأشيرات دخول السلع والأشخاص بين الدول.

مقاربة العولمة بوصفها العالمية: ويرى أصحاب هذه المقولة أن العولمة تعني بشكل خاص العالمية. يقول جون آرت سكولت: "عندما حاول أوليفر ودايفس في الأربعينيات من هذا القرن نحت الفعل (Globalize) قدّما له تعريفاً يقترب من معنى العالمية، وتوقعا أن يكون هناك تركيب عالمي للثقافات فيما سمي آنذاك "بالإنسانية العالمية." ففي هذا الاستعمال، لفظة "العولمة" تعني العالم كله، كما تشير إلى عملية نشر ونقل مجموعة من الخبرات والقيم والمفاهيم إلى كل البشر على وجه الأرض. ومثال ذلك عولمة التقويم الغريغوري، وانتشار السيارات في كل العالم، وانتشار المطاعم الصينية، وظاهرة الاستقلال، ونظم الزراعة وغيرها.[11]

مقاربة العولمة بوصفها التغريب والحداثة: وهنا ينظر إلى العولمة على أنها تعني الأمركة، واتباع النمط الغربي في الحياة والاقتصاد والثقافة والاجتماع. وعلى هذا المنطق تبدو العولمة على أنها التعبير المحس عن ظاهرة الحداثة وعملية الأمركة بما في ذلك مفاهيم وأطروحات الرأسمالية، والعقلانية، والتصنيع، والبيروقراطية، وأنماط التسيير

---

[10] Jan, Araft Scholte. *Globalization: A Critical Introduction*, p. 16.

[11] Ibid., 16.

الغربية الحديثة وغيرها. فكل هذه القيم والمفاهيم أصبحت شائعة عالمياً، ومتداولة على مستوى معولم، مما يجعل قيم الحداثة الغربية عالمية الانتشار، وهكذا تعزى ظاهرة العولمة إلى هذا الأصل الغربي الذي تهيمن عليه حالياً القيم الحضارية الأمريكية. وهذه العملية التحديثية وفق المنطق الغربي الأمريكي تقوم ضرورة "بتحطيم وتفكيك كل ما هو قائم من الثقافات والقيم المحلية الخاصة بالمجتمع الذي تتم عليه عملية العولمة. وفي هذا السياق كذلك كثيراً ما توصف العولمة على أنها إمبريالية ماكدونالدز وهوليود وسي إن إن".[12]

مقاربة العولمة بوصفها تقلص تأثير الحدود الجغرافية: وهنا ينظر إلى العولمة على أنها إعادة تشكيل للمجالات الجغرافية البشرية، ليس على أساس الحدود الجغرافية المعروفة للدول، ولكن على أساس الاتصال والتقارب الذي به يختفي تأثير الحدود السياسية والجغرافية والمساحات الجغرافية والمجالات الجغرافية. وفي هذا المقام يمكن القول: إن العولمة تعني: العملية أو العمليات التي يتم بموجبها إحداث تحولات جوهرية في المجال الجغرافي والمكاني بصورة تعيد عملية التنظيم الجغرافي والمكاني للعلاقات الإنسانية والتعاملات بين الأمم والمجتمعات.[13]

مقاربة العولمة بوصفها فعلاً استعمارياً حضارياً بمنطق علمي تكنولوجي صارم: وهنا يُنظر إلى العولمة على أنها تأتي في سياق الامتداد الثقافي والفكري والأيديولوجي للنموذج والثقافة والمعرفة والإنجاز الحضاري الغربي المعاصر الذي تحول إلى بؤرة استقطاب حيوية للعالم غير الغربي. وهذا النوع من الاستعمار قد لا يحدث بالضرورة عن طريق السلاح والقوة العسكرية الجبارة، ولكن عن طريق سلاح التخويف والتجهيل، وسلاح احتكار المعرفة والتكنولوجيا، وسلاح امتلاك مفاتيح المقاييس العالمية للتقدم والتحضر، وسلاح امتلاك المعرفة العلمية الجديدة في مختلف المجالات، وسلاح السبق في غزو الفضاء.

[12] Scholte, Globalization, p. 16.

[13] et al. D. Held. *Global Transformation: Politics, Economics and Culture* (Cambridge: Polity Press, 1999), p. 16.

فهنا يصبح العالم الذي لا يمتلك كل هذه الإمكانات مضطراً ليخضع ويُذل نفسه على أعتاب أبواب من يملكون قوة العلم والمعرفة والتكنولوجية. وبهذا لا يحتاج هذا المركز المستقطب والمالك لمفاتيح القوة بكل أنواعها أن يرسل قواته أو أسلحته المدمرة، ولكن يحرك شبكة علاقاته وأفكاره ومؤسساته لكي تخضع كل من لا يرغب في الخضوع أو لا يقبل الخضوع. والعولمة في هذه الحالة "تقودنا إلى نوع جديد من الاستعمار أكثر تدميراً ودهاء من نظيره التقليدي، إضافة إلى ذلك خلقت العولمة -التجلي الأخير للعقل الغربي الحديث- تشوشا حول ما هو المهم في الحياة. وتم إحلال مفاهيم جزئية جديدة لما تعنيه الحياة محل المفاهيم التقليدية للترابط والرخاء وبناء المجتمع."[14]

وربما تعبر النصوص الآتية على هذه النـــزعة والنظرة إلى العولمة: "إن التاريخ الأمريكي بكامله موسوم باتجاه دائم نحو التوسع والظمأ للأراضي والظمأ للقوة، والظمأ للجدة والأمجاد، وإلى العديد من الحاجات التي يتوجب إشباعها."[15] وهذا نص آخر ذو دلالة عميقة في هذا السياق:[16] "كنا نعتقد أننا نحرر أوروبا ونناضل استعمار اليابان الإقطاعية، ولكننا ظهرنا فجأة بعد الحرب العالمية الثانية محتلين أو مسيطرين على الأقطار الأجنبية في كل من أمريكا وأوربا وآسيا والشرق الأوسط دون ترحيب أحياناً... وبعد أن صدمنا استعمار الآخرين لسنوات طويلة طورنا نوعاً جديداً خاصاً بنا."[17]

ويجدر بنا أن ننقل نصاً معبراً ذكره إبراهيم أبو ربيع في مقالته المذكور سابقاً، وهو نص للكاتب ماركوس تحت عنوان "الحرب العالمية الرابعة بدأت"، ومنشور في جريدة العالم الدبلوماسي التي تصدر باللغة الفرنسية: "إن الغرب يعيد خلق التاريخ المنصرم في شكل جديد من "إعادة الاستعمار"، وهو ما يسمى "ما بعد الاستعمار"،

---

14 أبو ربيع، إبراهيم. "**العولمة: هل من رد إسلامي**"، مصدر سابق، ص43.

15 المصدر السابق، ص28. Claude Julien, L' empire ameiricane

16 يمكن مراجعة ترجمة هذا النص من الإنجليزية في مقال إبراهيم أبو ربيع، "العولمة"، ص ص 28-29.

17 Edmund Wilson, *The American Earthquake: A Chronicle of the Roaring Twenties The Great Depression and the Dawn of the New Deal* (New York: Da Capo Press, 1996), p. 569.

وتنشئ العولمة نظاماً عالمياً جديداً سيبدو بعد عقود قليلة مختلفاً جداً، فقد بدأت التحولات الرئيسة تأخذ مجراها بالفعل: فهناك انهيار الاشتراكية، وانتشار الخصخصة في أقطار مثل الصين والهند ومصر، وصعود القوى الإقليمية – كالجماعة الأوربية – على أثر التفوق الأمريكي، واتساع الفجوات الاقتصادية والاجتماعية بين الفقراء والأغنياء داخل الأقطار وفيما بينها، وعولمة الاستغلال كتداع طبيعي للخصخصة، والاستثمار متعدد الجنسية، وصعود القومية المغالية، والتطهير العرقي، ومشكلات اللاجئين الجديدة، وإضفاء الطابع الدولي على الجريمة، وخاصة ذات الصلة بالمافيا، وزعزعة الدولة القومية، وخلق أعداء دوليين جدد."[18]

والعولمة إذن إما أن تعبّر عن زيادة وتكاثف النـــزعة الدولية في العلاقات بين الدول والثقافات الدولية أو العالمية أو الأمركة أو الخصخصة أو تلاشي تأثير الحدود الجغرافية، باتجاه تكثيف وتسريع انتقال وتفاعل وتبادل الأفكار والأشخاص والأشياء بصورة تلقائية ومتسارعة ومتكاثفة، أو تعني صورة من صور الاستعمار الأكثر بشاعة وفظاعة وعلمية وتقنية وإبداعاً وقهراً. وتحت كل مقولة من هذه المقولات نجد تعريفات وآراء متنوعة للعولمة. وفي بعض المرات نرى تعريفات للعولمة لا تركز فقط على مقولة أو بُعد واحد، ولكن تفسرها بعاملين أو بعدين أو أكثر مما سبق ذكره.

وتنقسم النخبة الغربية كذلك على نفسها في النظر إلى العولمة وآثارها العملية؛ فمنهم من يرى أن العولمة ظاهرة وحقيقة عملية ملموسة، تقوم بإحداث التغييرات العميقة في الوعي، والفكر، والسلوك، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، والثقافة، والعلاقات الدولية، وغيرها. ومن الباحثين من لا يرى للعولمة هذا الأثر، وهذا الفعل، وربما يهون من قيمتها ووجودها الفعلي، ويعزو التحولات التي تأخذ حيزها في واقعنا العالمي المعاصر إلى عناصر أخرى، مثل الثورة التكنولوجية، وثورة المعرفة، ومجتمعات المعرفة، واقتصادات المعرفة، وتقنيات الاتصال المعاصرة، وقوانين التثاقف المعاصرة، ونظم الإنتاج والتوزيع الحديثة، وشبكات الوعي العالمي المعاصر، وكذلك تقنيات

[18] أبو ربيع، إبراهيم. "**العولمة: هل من رد إسلامي**"، مصدر سابق، ص37.

الهندسة الوراثية، والاستنساخ، وغيرها. كما يبدو أن بعض الباحثين يحاولون التوسط في الأمر فيرون أن العولمة ظاهرة واقعة، ولكن ينبغي تطوير مناهج وبناء مقاييس نستطيع بها قياس حجم تأثيرها، وأبعادها، ومراحل تطورها، والكيفية التي تسير وفقها، وكيفية توجيهها توجيهاً مناسباً.

ثالثاً: مداخل لدراسة طبائع العولمة في المنظور العربي الإسلامي.

في الحقيقة هناك مداخل وأطروحات متعددة للنظر والتعامل مع العولمة، سواء من وجهة نظر بعض المثقفين العرب[19] أم المثقفين الإسلاميين.[20] كما أن هناك تصورات متفاوتة ومتباينة لهذه الظاهرة. ولكن يبدو أن معظم الأطروحات والمقاربات المتوافرة في الساحة -وقد يكون هناك غيرها كثير- لا تكاد تخرج عن المقاربات الست السابقة الذكر في الخطاب الغربي العولمي. فلربما تتغير العبارات والمداخل، ولكن النهايات المعرفية والنهايات المنهاجية تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير.

وعلى سبيل المثال في ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان "العرب والعولمة" التي شارك فيها عشرات المثقفين العرب لخّص محرر الكتاب أسامة أمين الخولي أعمال الندوة وأطروحاتها بقوله: "إذا ما كانت معالجة موضوع في مثل تشعب موضوع العولمة وتعقيداته، معالجة وافية وموجزة في مقدمة كتاب يرصد أعمال ندوة حفلت بدراسات، وتعقيبات، ومداخلات غزيرة في كمها بقدر ما هي ثرية في جديتها وتنوعها، وهي تعالج مختلف تجليات الظاهرة وآثارها ومستقبلها، وإذا ما كانت هذه المعالجة شاقة، فلربما كان الأمثل أن يجيء عرض هذه المقدمة لظاهرة العولمة

---

[19] راجع دراسة:

Abushouk, Ahmed Ibrahim. “Globalization and Muslim Identity: Critical Reality and Future |Prospects, The International Association of Historians of Asia: The 18th Conference, Academia Sinica, Taipei, Taiwan, December 6-10, 2004, p. 12.

[20] انظر، إسماعيل، عبد سعيد عبد. **العولمة والعالم الإسلامي: أرقام وحقائق**، ط2، جدة: دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، 2002.

على هيئة رصد تحليلي موجز لأهم ملامح الظاهرة كما برزت من خلال أعمال الندوة ... ففي إطار اتفاق غالبية الآراء، الذي كثيراً ما وصل إلى حد الإجماع، نلاحظ ما يلي:

– أن الكل مجمع على أننا لسنا أمام أمر طارئ، ولا قطيعة ثورية مع الماضي القريب. إننا إزاء عملية تاريخية.

– أن الكل مجمع أيضا على أن الإنكار والاستنكار موقفان غير مقبولين إزاء ما نواجهه. ويستوي معها موقف الاندفاع والهرولة للحاق بالركب دون فهم حقيقة ما يجري. إن الرأي السائد هو أن ركيزة الظاهرة الأساسية اقتصادية في طبيعتها، وأن أدواتها الفعالة هي الشركات المتعددة القوميات. وهي بوصفها ظاهرة تاريخية،[21] ليست أيديولوجيا جديدة، أو مذهباً سياسياً مبتكراً، أو معتقداً فكرياً حديثاً. وإن كان هذا لا يعني بالطبع تجاهل تجلياتها في المجالات السياسية والعسكرية والثقافية والإعلامية، ولا التهوين من آثارها في هذه المجالات.

– أن الكثيرين أكدوا انتقائية الظاهرة، كما نرى تجلياتها اليوم على أرض الواقع، وبعيداً عن الشعارات البراقة المطروحة حول الديمقراطية أو حقوق الإنسان، فهي تفتح أسواق العالم لمنتجات دعاتها الكبار، وتوصدها أمام منتجات الدول النامية، كالمحاصيل الزراعية والمنسوجات، وفي وجه العمالة التي كانت ترحب بمجيئها في ما مضى. العولمة في الشمال والهيمنة في الجنوب ليستا ظاهرتين منفصلتين، إنها عملية واحدة طبيعية ومتوائمة، والتناسق بين أجزاء المنظومة الدولية هو الأصل.

– أن الغالبية ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الفاعل الرئيس في عملية إعادة إنتاج نظام هيمنة جديد تحت شعار العولمة، وأن العولمة كما نعرفها اليوم هي عولمة أمريكية أساساً، ومحاولة لعولمة نمط الحياة الأمريكي. والعولمة بمعنى الاستعلاء واحتواء العالم ليست هي العالمية، أي الانفتاح على العالم والاعتراف المتبادل بالآخر دون فقدان الهوية الذاتية.

---

[21] حنفي، حسن. والعظم، صادق جلال. **ما العولمة**، دمشق: دار الفكر، 2000، ص17 وما بعدها.

- أن الأمر الأكثر لفتاً للنظر في الدراسات والمناقشات والتعقيبات، خصوصاً في جلسة العمل الأخيرة حول موضوع ما يجب، أو ما يستطيع الوطن العربي القيام به وهو يتعامل مع هذا الواقع، هو أنها لم تأت بجديد لافت للنظر حقاً! إذ إن جماع ما طرح من مقترحات وتوصيات وآراء لم يتجاوز ترديداً لأفكار تواترت لعدة سنين خلت، ومبادرات أخذت في الماضي ولم تدم، ومؤسسات أقيمت ولم يقدر لها أن تضرب بجذورها وأن تؤتي ثمارها. الكل يرى الخلاص في تجمع اقتصادي عربي، أو منطقة تجارة عربية حرة، أو سوق عربية مشتركة ومشروعات عربية مشتركة، دع عنك التكامل الاقتصادي، ولا تغير من هذا الانطباع كثيراً إشارات برقية عارضة حول إضافة بعد إسلامي جديد لهذه المساعي القديمة."[22]

ومع تعدد تعريفات العولمة وتباينها، فإن بعض المؤلفين لا يرون علاقة المسلمين بالعولمة المعاصرة تتجاوز المواجهة مع الغرب، ونمثل لذلك بما ورد في كتاب من سلسلة كتب الأمة: "أما علاقة المسلمين بالعولمة فترجع إلى الصراع والاحتكاك والتفاعل المستمر تاريخياً، والذي أخذ أشكالاً متعددة تتراوح من التبادل الثقافي إلى الحروب الصليبية، وحتى الاستعمار الغربي والهيمنة الرأسمالية الغربية. فالعولمة لدى المسلمين، من خلال الرصيد التاريخي للاستعمار والتغريب، هي مشروع غربي للهيمنة. ومن هذا المنظور يتم تحليل العولمة، ومن ثم التعامل معها، من ثمّ فإن النظرة للعولمة هي امتداد للبحث عن كيفية التعامل مع الغرب من خلال تأكيد الهوية الإسلامية، إلا أن ذلك يجب أن لا يحول دون النظر للعولمة من خلال معايير موضوعية وصحيحة، حتى نتمكن من أن نعرف وننكر بعيداً عن الأحكام العامة والعامية، التي سوف لا تمكننا من التعامل معها بمهارة، فمعظم الفكر الإسلامي الحديث -لولا خشية المبالغة- حوار وصراع مع الغرب، وهذا ما حدد الإطار العام لأسئلة الفكر العربي الإسلامي. أضف إلى ذلك أن

---

22 الخولي، أسامة أمين. **العرب والعولمة**، تحرير أسامة أمين الخولي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ص9-10.

العولمة، كظاهرة في حد ذاتها، عملية مؤداها تحطيم قدرات العالم الثالث -خاصة العالم العربي والإسلامي- على النمو والإنتاج، مضيفة إلى فقره فقراً، وإلى ضعفه ضعفاً، لتتوالد الأزمات في أرض مهدت ذلك. ويدعم هذا الرأي المفكر الفرنسي (جورج لابيكا) الذي لا يرى في العولمة سوى حركة تدعمها الولايات المتحدة والشركات المتعددة الجنسيات، هدفها مواطنو العالم بأسره، وخلق نسخ مكررة واستهلاكية ذات نمط استهلاكي عال يغذي الحركة الرأسمالية الوحشية، وفي الوقت نفسه تسعى إلى تهميش كل من لا يستطيع أن يتماشى مع النظام والخضوع له."[23]

رابعاً: نحو مدخل حضاري لتوجيه العولمة ومقاربتها

في الحقيقة يمكننا أن نذكر عشرات التعريفات وعشرات التحليلات التي تأخذ بعين الاعتبار الجانب العربي والإسلامي في التعامل مع العولمة بوصفها ظاهرةً وفعلاً حضارياً معاصراً. إلا أن الخلاصة الأولية التي يستطيع القارئ أن يخرج بها من معظم هذه التحليلات أنها لا تبتعد كثيراً عن ما سبق ذكره. ولكي تتضح لنا الصورة بشكل أكثر دقة يمكن أن ننظر إلى العولمة وفق إطار نظري ثلاثي المداخل. وهو أن نحلل مسألة طبائع العولمة، آخذين بعين الاعتبار هذا المدخل المعرفي العام:

العولمة الأيديولوجية؛ أي أدلجة العولمة، وجعلها موضوعاً للممارسة الأيديولوجية لصالح مجموعات وأيديولوجيات ودول ومؤسسات ورؤى كونية معينة ومحددة.

العولمة الموضوعية العلمية الأكاديمية، أي: العولمة كموضوع للممارسة العلمية والأكاديمية والتوجيه المنهاجي الإيجابي لها.

العولمة الحضارية، حضارية العولمة، وجعلها موضوعاً للممارسة الحضارية لصالح

[23] بـــركات، محمد مراد. **ظاهرة العولمة: رؤية نقدية**، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1422هـــ، (سلسلة كتاب الأمة؛ 86).

الإنسان عموماً، ولصالح الحضارات الإنسانية القائمة اليوم، ولمختلف الرؤى الكونية المتصارعة في عصر العولمة.

ملاحظات حول التوجيه الأيديولوجي للعولمة

وتحاول المقاربة الأولى -العولمة الأيديولوجية- ربط مفهوم العولمة بتصورات ونماذج كونية معينة وأيديولوجيات[24] وضعية ومادية معروفة. يقول الأستاذ عابد الجابري: "العولمة إلى جانب كونها نسقاً اقتصادياً، فإنها فكرانية -أيديولوجية- تخدم هذا النسق، فالأمركة والعولمة متضافران بشكل بالغ"[25] كما يحاول كذلك أصحاب ودعاة هذه المقاربة ربطها بالنموذج الغربي الرأسمالي، وبمفاهيم الحداثة وما بعد الحداثة ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وغلبة النموذج الحضاري الغربي الأمريكي تحت سيطرة مفاهيم سياسية، واقتصادية، وتكنولوجية، ومعلوماتية، واتصالية، وإعلامية، وجغرافية، مثل: الديمقراطية الغربية، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، واقتصاد السوق، وحرية حركة الخدمات والسلع والأشخاص، وقوانين الاقتصاد العالمي التكاملي الحر، والتقنيات الجديدة في مجالات المعرفة المختلفة ومجتمعات المعرفة واقتصاد المعرفة. والمقاربة الأيديولوجية فيها محاولة لتوجيه العولمة نحو وجهات معينة.

ويقول أحد الضالعين في شؤون العولمة: "إنه من الواضح أن مفهوم العولمة موضوع للممارسة الأيديولوجية؛ لأنها مثل الحداثة تظهر وكأنها تبرر نشر الثقافة الغربية، وكذلك المجتمع الرأسمالي من خلال اقتراح وجود قوى قاهرة تعمل خلف نطاق التحكم الإنساني، التي تقوم بتغيير العالم وتحويله. إن العولمة هي النتيجة المباشرة لتوسع وهيمنة الثقافة الأوربية عبر العالم عن طريق الأقمار الصناعية، والاستعمار، والغزو

---

[24] ابن نبي، مالك. **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، القاهرة: مكتبة عمار، 1970، ص13 وما بعدها.

[25] الجابري، محمد عابد. **العولمة نظام وأيديولوجيا**، الرباط: المجلس القومي للثقافة، 1997.

الثقافي. إنها كذلك متصلة ذاتياً وأصلياً بنموذج التطور الرأسمالي، كما هي مشمولة في المجالات السياسية والثقافية. مع هذا فإن هذا لا يعني أن كل زاوية في العالم يجب أن تصبح غربية ورأسمالية، ولكن كل نسق من الأنساق الاجتماعية أو توجه من التوجهات يجب أن يشكل موقعه في صلته مع الغرب الرأسمالي. وباستخدام عبارة روبرتسن يجب أن تتنازل وتصبح نسبية قابلة للمرونة والتنازل."[26]

وهذا التأكيد للمركزية الغربية، ولهيمنة النموذج الحضاري الغربي الحالي على مختلف مجالات الفعل الحضاري، هو الذي يجعل هذه المقاربة نازعة نحو أدلجة مفهوم العولمة وتوجيه ديناميكياتها وفعاليتها وآلياتها وأدواتها ووسائلها، لتحقيق استمرار هذه المركزية على الأشخاص والأفكار والأشياء والجغرافيا والتاريخ، وعلى المآل المستقبلي[27] لمسيرة الحضارة، التي ينبغي أن تتكرس فيها غلبة النموذج الحضاري القائم.

ويزيد الباحث السابق ذاته في بيان بعض أوجه التوجيه الأيديولوجي للعولمة بقوله: "إن العولمة كذلك من جهة أخرى تعدّ ظاهرة أوروبية، أو متأثرة بالنموذج الأوروبي تأثرا كبيراً. إن نـــزع الحدود الاجتماعية والسياسية قد وقع بصورة سريعة في الجانب الغربي لأوروبا، فقد أصبحت الحدود تتقلص، وبدأ التنوع والاتصال يتعدد ويشكل الواقع الجديد، إن هذا يعني أن نموذج العولمة الجاري عولمته هو النموذج الأوربي نفسه. مثل: التطورات داخل منطقة الاتحاد الأوروبي أصبحت ذائعة الصيت، بوصفها نموذجاً حياً للعولمة الجغرافية، وتقليص الحدود الجغرافية بين الدول."[28]

ولكي ندرك بصورة جلية الأبعاد الأيديولوجية أو التوجيه الأيديولوجي للعولمة من المستحسن أن نثبت نصاً معبراً –ولو أنه طويل نسبياً– لباحثين غربيين مطلعين –إلى حد كبير– على العولمة وتشابكاتها وتجلياتها وتعييناتها الأيديولوجية:

[26] Malcolm Waters, *Globalization*..., p. 3.

[27] عمـــارة، محمد. " مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية "، العولمة والعالم الإسلامي، محاضرات الموسم الثقافي الثالث عشر (الجامعة الإسلامية العالية، إسلام آباد، أبريل، 2000م).

[28] Malcolm, *Globalization*... p. 4.

"ولا ريب في أن بيرر وغيره من رافعي راية العولمة، إنما يحاولون بما يختارون من عبارات وصور، الإيحاء بأن الأمر يتعلق بحدث شبيه بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا على ردها والوقوف بوجهها، أي إنها نتيجة حتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي ليس بوسعنا إلا الإذعان له. والواقع أن هذا ليس إلا ثرثرة. فالتشابكات الاقتصادية ذات الطابع العالمي ليست حدثاً طبيعياً بأي حال من الأحوال، إنما هي نتيجة حتمية خلقتها سياسة معينة بوعي وإرادة. فالحكومات والبرلمانات هي التي وقّعت الاتفاقيات وسنّت القوانين التي ألغت الحدود والحواجز، التي كانت تحد من تنقل رؤوس الأموال والسلع من دولة إلى أخرى، ورجالات الحكم في الدول الصناعية الغربية هم الذين خلقوا، ابتداءً من تحريرهم المتاجرة بالعملات الأجنبية الصعبة وعبر السوق الأوروبية المشتركة، وانتهاءً بالتوسع المستمر لاتفاقية التجارة العالمية المسماة (الجات) بانتظام – الحالة التي يعجزون الآن عن معالجتها. ويتزامن التكامل العالمي مع انتشار نظرية اقتصادية ينصح بها عدد كبير من الخبراء والاستشاريين الاقتصاديين، ويقدمونها دونما كلل أو ملل للمسؤولين عن إدارة دفة السياسة الاقتصادية على أنها النهج الصحيح: إنها الليبرالية الجديدة. والمقولة الأساسية لهذه النظرية الجديدة هي ببساطة: ما يفرزه السوق مقبول، أما تدخل الدولة فهو غير معقول". وانطلاقاً من أفكار أهم ممثل لهذه المدرسة الاقتصادية، الاقتصادي الأمريكي ملتون فريدمان، اتخذت في الثمانينيات الغالبية العظمى من الحكومات الغربية هذه الليبرالية النظرية مناراً تهتدي به في سياساتها. ويدعو الاقتصاديون والسياسيون الليبراليون الجدد العالم للاقتداء بـــ "النموذج الأمريكي"، إلا أن واقع هذه الدعوة مريب، وشبيه بالدعاية التي كانت تطلقها حكومة ألمانيا الشرقية، حينما كانت تقول عن نفسها إنها ستبقى تتعلم الانتصار من الاتحاد السوفيتي دائماً وأبداً."[29]

---

[29] هانس، مارتن وشومان، هارالد. **فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية**، ترجمة: عدنان عباس علي ورمزي زكي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990، (سلسلة كتاب عالم المعرفة؛ 238)، ص33-36.

إن هذا النص يعبر بطريقة ما عن النـــزعة الأيديولوجية في الفعل العولمي الغربي الراهن بصورة تجعل القضية شائكة ومعقدة، وتسير بخطى متسارعة ومنظمة. يمكننا زيادة في التوضيح طرح السؤال الآتي: من يستفيد من العولمة؟ ويجيب أحد الباحثين: "إنه بصورة عامة يمكن القول: إن المستفيد الأول هو المجتمعات الغربية في القرون القليلة الماضية، فنصيب السهم الأوروبي في العالم زاد بصورة مذهلة... ونتيجة للعولمة فإن الأوربيين وأجيالهم اليوم يملكون معظم الأراضي الصالحة للزراعة، ومعظم المصادر الإنتاجية للغذاء، ويمكنهم كذلك مراقبة المصادر المائية والبحرية"[30] وقد خلص أحد الباحثين في مسألة العولمة إلى هذا التقرير الحزين:

"في كثير من مراحل تطور العولمة كانت عملياتها الأساسية متوجهة إلى دمج المصادر والإمكانات الخارجية بما يفيد التشكيل المتنامي للقوة الغربية ولمركزيتها. إن تلك الحكومات والمجتمعات والأفراد الذين أثبتوا أنهم يمكن أن يتبنوا أو يدمجوا في هذه العولمة، فإنهم استوعبوا في الخط العام لهذه العولمة الغربية استخدام وسائل وأساليب التعاون. والغالبية العظمى من الآخرين؛ إما أنهم قُهروا، أو سُيطِر عليهم، أو تُجوهلوا، أو عزلوا. وأما الرأي الآخر البديل لهذا المنطق المركزي الغربي الذي يهدف إلى تعديل السياسات الغربية باتجاه ما يكون في فائدة باقي العالم فلم يؤخذ بعين الاعتبار بالقدر اللائق أو بالصورة المطلوبة...إن العولمة حتماً تثير مشكلة: هل يستطيع المجتمع الإنساني أن يكون مجتمعاً مرفهاً في ظل سيادة قيم العولمة؟... إن التجربة التاريخية للعولمة لا تسمح لنا أن نقدم أي نتيجة متفائلة وسهلة. إنها لا تقدم لنا الأسس التي تدعم الرأي القائل أن المجتمعات الكبيرة بالضرورة تخلق منافع وفوائد للناس، بل العكس هناك إمكانية للقول: إن هذا النوع من العولمة يؤدي إلى مخاطر كبيرة."[31]

---

30 C.M. Cipolla. *The Economic History of World Population* (Harmondsworth: Penguin, 1964), pp. 102-104.

31 George Modelski, *Globalization, Quoted in The Globalization Transformation Reader: An Introduction to the Globalization Debate*, Edited by: David Held &Anthony McGrew (Cambridge: Polity Press, 2001), pp. 52-53.

إن الخلاصة الأولية التي يخرج بها قارئ الاتجاهات الأيديولوجية في دراسة العولمة هي محاولة تكريس مسألة المركزية الاستقطابية الغربية والأمريكية بشكل خاص. وهذا يعني أن الغرب الراغب في المركزية والهيمنة يفترض "أن قيمه الخاصة هي المعيار؛ أي أنها قيم عالمية، وأن تبنيها سيحل مشكلات العالم. فإن ما بعد الاستعمار يهدف إلى تدمير التنوع الثقافي في عالم اليوم، وخلق ثقافة عالمية متجانسة واحدة."[32]

إن أدبيات العولمة وممارساتها تؤكد أن الحضارة الغربية، وخاصة الأمريكية الحديثة، ما زالت تبحث عن القوة والهيمنة والتسلط. إن الذي يتأمل جيداً العولمة في عمقها الغربي، وفي عمق أبعادها الحضارية المؤسسة على الرؤية الكونية الغربية، فإنه سيجدها تعبر عن عملية مؤسسية واعية ومنظمة، من أجل محاولة تجديد النسق الغربي الحضاري، وتوجيه كل قواه من أجل تكريس مركزيته على نطاق عالمي واسع، وبأسلوب أكثر دقة وعلمية ومنهجية.

والغربي أو الأمريكي، حين ينظر إلى العولمة من ذات نسقه هو فإنه يرى فيها عملية ضرورية لإعادة بناء قوته، ومعالجة الجوانب المهترئة في حضارته. فعند هذه الشريحة من الإنسان الغربي ليست غاية العولمة هي أن تنقل الحضارة إلى الآخرين، أو أن تخدم مصالح الآخرين أو أن تنقذهم من التخلف والضعف الحضاري بكل أنواعه؛ فهذا أمر ثانوي هامشي تابع، وليس مقصوداً من العملية؛ فالمقصود الفعلي والمخطط للعولمة عند هؤلاء هو محاولة تجديد الذات والقوة من أجل استمرار المركزية والمحافظة عليها في ذروة قوتها. فهذا النوع من الإنسان الغربي الحديث حين يطرح العولمة بكل آلياتها، فهو لا يطرحها لإنقاذ حضارة الآخرين، ولكن في الأساس لتحقيق مصالحه هو. وكل ما لا يعود عليه بالمصلحة، وكل ما لا يكرس مركزيته وقوته وهيمنته عليه فلا موقع له في التخطيط الاستراتيجي للعولمة الأيديولوجية الغربية الحالية.

والعولمة كما نشاهدها اليوم لا تعبر عن عمق مشروع كوني وحضاري ومعرفي

[32] أبو ربيع، إبراهيم. "**العولمة: هل من رد إسلامي**"، مصدر سابق، ص31-32.

ومنهاجي، كما أنها لا تشكل نسقاً حضارياً بديلاً يمكن أن يقنع الآخرين ولكنها عبارة عن وسيلة معقدة ومركبة وفاعلة تتيح للغربي المهندس لها فرصة تأكيد حضوره، واستمرار حيويته الحضارية، وهيمنته على القرار والقوة وزمام الفعل الحضاري الإنساني. فهي في عمقها مشروع لتأمين المستقبل الغربي، ولكنها لا تشتمل على مضمون إنساني فطري شهودي حضاري استخلافي أخلاقي قيمي، يمكن أن يبشر الإنسان المعاصر بمستقبل حضاري متوازن ومتكامل.

والعولمة الأيديولوجية الغربية تعبير عن هاجس سياسي ثقافي غربي يدفع بالإنسان الغربي إلى الدفع القسري بمصالحه في عمق مصالح البشرية، قاصداً إلى ضمان هيمنته وتحكمه في كل المصالح الحضارية الإنسانية. والعولمة بهذا الوضع والمضمون تقسم البشرية من جديد إلى خندق الإنسان الغربي، الذي يقع في المركز، وفي العمق من الحضارة، وإلى خندق الآخرين الذين هم في الهوامش والصحاري المقفرة.

فهذه هي إذن طبائع ومسارات وأنساق التوجيه الأيديولوجي للعولمة، وعلى الباحث المشتغل بها أن يكون على وعي تام بهذا المدخل في تحليلها وتفسيرها والتعامل معها.

خامساً: ملاحظات حول التوجيه العلمي الموضوعي الأكاديمي للعولمة: مقاربة العولمة من منطق الأدلجة إلى نسق الدراسة العلمية المركزة

وعلى الرغم من بروز هذا النـــزوع الأيديولوجي، وتضخمه في كثير من الأفعال، والاستراتيجيات الكبرى لبعض الدول المعروفة "بالعظمى" في العالم، إلا أن تضخم هذا النـــزوع الأيديولوجي وهذا الإقحام الأيديولوجي للعالم كله في تيه نموذج حضاري معين - يخلق بطبيعته قوى **ما ضد الأدلجة العولمية** الغربية، التي تشكل رد فعل عنيفاً وفاعلاً لسياسة الأدلجة، وهذا ما نشاهده في كثير من الرؤى والأفكار والأطروحات والنشاطات والفعاليات التي تقوم بها بعض الدوائر الفكرية والأكاديمية والسياسية، وبعض الجمعيات والمؤسسات الحكومية وغير الحكومية في البلدان الغربية ذاتها،

وكذلك في مختلف بلدان العالم. ويبدو أن الصراع بين منطق الأدلجة ومنطق ما ضد الأدلجة هو اليوم على أشده، إما من أجل الوصول إلى توفيق حضاري معين يسمح باستمرار التعايش الحضاري الإنساني، ولو على حساب بعض التنازلات والتضحيات بين الأطراف المتجاذبة لقوى العولمة؛ أو من أجل إرساء قواعد الصراع والتخندق والتموقع في مختلف ساحات الصدام والمواجهة.

إن تضخم منطق أدلجة العولمة، وتكثيفه لنشاطه، وامتلاكه لزمام القوة والمبادرة والفعل الحضاري فتح المجال لبروز مقاربات أخرى للعولمة تحاول أن تعطي للأمر صورة أخرى، وتؤكد على ضرورة إحياء الطابع العلمي الموضوعي لمشروع العولمة ولفعالياتها. فظهرت مجموعة من الأطروحات والكتابات الغربية التي تتحدث عن العولمة بمنطق يختلف نوعاً ما عن المنطق الأيديولوجي الفاضح. ونرى مؤشرات لهذا الطرح في التوجهات التي تحاول أن تفصل – ولو من الناحية النظرية البحثية – بين المجال الأيديولوجي والمجال العلمي الموضوعي للعولمة، فيتحدث أصحاب هذا النـــزوع عن العولمة بوصفها أفعالاً منهجية منظمة تهدف إلى تحقيق بعض المفاهيم والأهداف الأساسية، مثل: ترسيخ مفاهيم العالمية، ومفاهيم القرية الكونية، ومفاهيم الثقافة العالمية، ومفاهيم الحوار الحضاري والثقافي العالمي، والاتصال الإنساني، وتحقيق التوازن الكوني العالمي على مستوى: العدالة، وتوزيع الثروات، ومواجهة قضايا البيئة والصحة والفقر والحروب والتسلح، على مستوى عالمي لا محاباة فيه. ومن بين الأمور المطلوبة هنا من كل الأطراف "حماية التنوع الثقافي العالمي، والتعددية في وجه الهيمنة الأمريكية المتصاعدة، ويكمن حلها في تحقق تغير رئيس في تفكير كل من الشمال والجنوب، فعلى الشمال أن يعترف بالتنوع الثقافي."[33]

ومن نماذج هذه التعريفات والتوجهات –مثلاً– النظر إلى العولمة بوصفها تعني توسيع وتعميق وتسريع التشابك والارتباط بين المجتمعات. ويمكن أن تؤخذ العولمة

[33] أبو ربيع، إبراهيم. "**العولمة: هل من رد إسلامي**"، مصدر سابق، ص32.

لتعني تلك العمليات التغييرية الزمانية والمكانية، التي تهدف إلى إحداث تحولات في تنظيم الشؤون الإنسانية من خلال الربط والتوسيع للنشاط والفعل الإنساني عبر المناطق والقارات. فمفهوم العولمة يعني في المقام الأول والأساس: التوسيع في النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي عبر الحدود الجغرافية، وبهذه الصورة الحوادث والقرارات والنشاطات في منطقة ما من العالم يكون لها أهمية للأفراد والمجتمعات في المناطق القصيّة الأخرى من العالم. وبهذا المعنى فإن العولمة تشتمل على معاني ما وراء الحدود، والتشابك في العلاقات والتوسيع لنقاط تأثير النشاط الاجتماعي والقوة، وكذلك إمكانية الفعل والتأثير عن بُعد. والعولمة فوق هذا تعني أن الاتصالات عبر الحدود ليست مؤقتة ولا عشوائية، ولكن على العكس فهي منظمة ومقننة بصورة تظهر أن هناك تكثيفاً محسوساً لها، وكذلك أنساق التفاعل وسرعة حركة الاتصالات تتعدى وتتجاوز حدود المجتمعات والدول المكونة للنظام العالمي. ومن هذه التحديدات الأولية يمكن أن تعرَّف العولمة على أنها: العملية (أو مجموعة العمليات) التي تجسد نوعا من التحول في التنظيم الكوني للعلاقات والتعاملات الاجتماعية -التي تظهر في توسع هذه العلاقات وتأثيرها- بصورة ينتج عنها تيارات وشبكات للنشاط والتفاعل وممارسة القوة العابرة للقارات.

وفي هذا المقام فإن مفهوم "تيار" يعني: الحركة المادية للأشياء والأشخاص والرموز والصور والمعلومات عبر المكان والزمان. وأما مفهوم "شبكات" فيعني العلاقات المنظمة والمقننة بين فاعلين مستقلين أو نشاط، أو شبكات القوة.

إن هذا المعنى للعولمة يساعدنا على تجاوز العجز المنهجي الموجود في مختلف المقاربات، لكي نتمكن من التفريق بين العولمة وبين عمليات، أو مفاهيم ضيقة، مثل: المحلية، والوطنية، والإقليمية، والدولية أو العالمية.[34]

ومن التحاليل الأخرى التي تتبنى هذا النـــزوع العلمي في التوجيه العولمي قول

[34] David Held and Others, *Rethinking Globalization, The Global transformation Reader*, Op.Cit., pp. 54-55.

أحد الباحثين الغربيين: إن "العولمة تعني العمل على إلغاء الحدود الجغرافية، أو الزيادة في العلاقات والاتصالات بين الشعوب بصورة تختفي فيها التأثيرات الجغرافية والمكانية. والعولمة تشير إلى تغير عميق في طبيعة الفضاء، أو المكان الاجتماعي. فتنوع وانتشار فكرة ما وراء المجال الجغرافي، أو ما يمكن تسميته بالاتصالات والارتباطات ما فوق الحدودية قد عجل وأجهز على ما يمكن تسميته بالجغرافية المكانية، أو الجهة المكانية المحددة التي تكون فيها الجغرافية الاجتماعية[35] بالضرورة محلية، أو جهوية، أو متصلة بالمجال الجغرافي للمجتمع. وعلى الرغم من أن مسألة الحدود الجغرافية المعهودة ما زالت ذات شأن في عالمنا المتعولم، إلا أنها لم تعد تشكل أساس وعمق إطارنا الجغرافي. إن إعادة تشكيل وتنظيم إطارنا المكاني الاجتماعي له آثار عميقة وبعيدة المدى."[36]

إن هذا الطرح الذي يتحدث عنه كثير من الباحثين الغربيين بدأ ينتشر في الدوائر الأكاديمية، وحتى في أوساط بعض القوى الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية. وتحاول مثل هذه الأطروحات، في بعض الأحيان، تأكيد أهمية الثقافة العالمية، وأهمية المصير المشترك

[35] يمكن أن نرسم صورة عن نوعية وكمية النشاطات التي تقام اليوم وتبين تقلص دور الحدود الجغرافية في الحركة الاجتماعية للوعي والقيم والأشخاص والأشياء والأفكار. فمثلاً على المستوى الاتصالي الإعلامي: هناك تزايد في الرحلات الجوية، والاتصال السلكي واللاسلكي، والفضائيات، والاتصالات الإلكترونية، والنشر والطبع على المستوى العالمي. وفي مستوى السوق: هناك المنتوجات العالمية، واستراتيجيات البيع الدولية، وفي مستوى الإنتاج: هناك شبكات الإنتاج الدولية، والتمويل الدولي للمشاريع، وفي مستوى العملات: هناك العملات الدولية، وبطاقات البنوك المربوطة بالشبكات الدولية للبنوك، والسيولة الدفعية الإلكترونية، وفي مستوى المالية: هناك السوق الدولي لتبديل العملات، والبنوك الدولية للإيداع وللقرض، والمجموعات المالية الدولية، وأسواق الأسهم المالية الدولية، والتأمين الدولي، وفي المستوى التنظيمي: هناك المؤسسات الدولية في التسيير والإدارة، والشركات الدولية، والتكتلات الاستراتيجية الدولية، والجمعيات المدنية الدولية، وفي مستوى قضايا البيئة: هناك مثلاً التغير في الجو عالمياً، ومنطقة الأوزون، والمواد الإشعاعية، والمواد السامة، والتلوثات المتنوعة، وكذلك مشكلات الصحة والتصحر والغابات، وهناك ارتفاع مستوى البحر، وتلوث البحار، ونقص في الماء الصالح للشرب، وضياع الأراضي الصالحة للزراعة، وفي مستوى الوعي الإنساني. هناك الوعي على أن العالم أصبح قرية واحدة، وانتشار الرموز العالمية، وكثرة الحوادث ذات الطابع الدولي والعالمي، وبروز نزعات التعاطف العالمي بين الشعوب. See, Scholte, Globalization, p. 55.

[36] Scholte, *Globalization*... p. 46.

للمجتمعات الإنسانية، وضرورة العمل من أجل تحقيق التعاون والتعايش والحوار، والمساواة، والتقليل من الحروب، ومعالجة القضايا الحاسمة للبشرية، مثل: البيئة والصحة والتسلح. إن هذا التوجه للعولمة يمكن أن يؤدي إلى الوصول إلى مقاربة حضارية إذا ما استطعنا أن نُغلِّب منطق القيم[37] والأخلاق والتعاون والتعايش والحوار والتعارف على منطق الهيمنة والصراع.

التوظيف المنهجي لظاهرة العولمة في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية الغربية

في هذه المقاربة العلمية الأكاديمية التي تهتم بدراسة تأثيرات ظاهرة العولمة في ميادين المعرفة الإنسانية والاجتماعية المعاصرة، تبدو هذه الظاهرة أكثر تأثيرا في وحدات التحليل المستخدمة ضمن نطاق مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة. وهنا تبدو ظاهرة العولمة، شأنها شأن الظواهر الحضارية الكونية الكبرى ذات التأثيرات النوعية والتغيرات الجوهرية في الوعي والتاريخ والفكر والجغرافية والأشياء والأشخاص. وقد لاحظنا مثلاً كيف أن العلوم الإنسانية والاجتماعية والسلوكية في الغرب بدأت ترصد هذه الظاهرة، وتستكشف أنساق حركتها، وتقترب أكثر من تفهم نظامها الداخلي وآلياتها وديناميكياتها، وتحاول أن توظفها في محاولة أولية لإعادة تشكيل المنظورات والأنساق التحليلية النفسية والاجتماعية والمعرفية والثقافية ذات الأبعاد العالمية المركبة؛[38] حيث العلوم الإنسانية والاجتماعية والسلوكية الأكثر عولمة وعالمية، والأكثر تركيباً وتعقيداً، والأوسع تفسيراً وفهماً للظاهرة الإنسانية والاجتماعية والثقافية، الأكثر شمولاً في تفهم السلوك السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، .... إلخ للإنسان المعاصر.

وفعلاً بدأ يتضح أن مقولات العولمة ونظرياتها قد بدأت توسع من نطاق

[37] Peter Martain, *The Moral Case for Globalization*, The Globalization Reader, pp. 12-13.

[38] Leslie Sklair, *Sociology of Global System*, The Globalization Reader, pp. 70-76.

موضوع الظاهرة الاجتماعية، ومن نطاق المنهج المستخدم، ومن نطاق الأهداف الخاصة بمختلف العلوم. وأصبح جلياً أن أفق العلوم الاجتماعية والإنسانية والسلوكية القائم اليوم لا يقدر على تفهم بعض الظواهر العالمية أو المعولمة إلا بإدخال عنصر آخر في التحليل، هو عنصر العولمة، أو المجال الجديد للتحليل النظري والمعرفي للظاهرة الاجتماعية. وكما قال أحد الباحثين فإن "الماكروسوسيولوجي، الدراسة الخاصة بالعمليات الاجتماعية العامة، عادة ما تأخذ "المجتمع" وحدةً أساسية للتحليل. وما دامت الماكروسوسيولوجي مهتمة بالمجتمع الحديث فهي بالضرورة تركز على مفهوم الدولة بوصفها وحدة للتحليل. إن النظريات السوسيولوجية الخاصة بالتغيير قد ركزت دوماً على الكيفية التي بها تؤثر تلك العمليات العامة مثل: العقلانية والتمايز البنيوي أو صراع الطبقات، على البنى الاجتماعية للمجتمعات الوطنية."[39] والعولمة بصياغتها ومنطقها الحالي تحاول أن تدخل ضمن مفهوم الظاهرة الاجتماعية قضية العولمة، أو الحضارة العالمية، أو القرية الكونية، أو المجتمع الممتد عالمياً بوصفه وحدة للتحليل.

ويحاول أحد الباحثين رصد تجليات العولمة وتعيناتها بحثاً عن تحديد لطبيعتها ومضمونها بقوله: "إن العولمة يمكن أن تُلحظ في ثلاثة مجالات للحياة الاجتماعية أصبحت بارزة في مختلف التحليلات النظرية وهي:

- الاقتصادي: وتبرز في الترتيبات الاجتماعية الخاصة بالإنتاج، والتبادل، والتوزيع، والاستهلاك للسلع والخدمات.

- السياسي: الترتيبات الاجتماعية الخاصة بتركيز وتطبيق القوة، وبصورة خاصة في الحالات التي تدخل التبادل المنظم للرقابة (العسكرية والشرطة وغيرها)، وكذلك التحويل المؤسس لهذه الممارسات – مثل: السلطة والدبلوماسية – التي تستطيع الرقابة على الأفراد والحدود.

[39] Malcolm, *Globalization*... p. 11.

- الثقافي: الترتيبات الاجتماعية الخاصة بالإنتاج، والتبادل، والتعبير عن الرموز التي تمثل الحقائق، والآثار، والمعاني، والعقائد، والتفاضلات، والأذواق، والقيم."[40]

ولئن كان للعولمة تأثير واضح في المجال الاقتصادي والسياسي والثقافي، فإن حركتها تهدف إلى إعادة بناء التنظيم الكوني للعلاقات السابقة مع الجغرافية والحدود التي كانت تفصل بين المجتمعات. وبعبارة أخرى: إن ادعاءات نظرية العولمة تتركز حول العلاقة بين التنظيم الاجتماعي والحدود.

إن فهمنا لهذه التحولات وكيف تتم يُعين على استيعاب طبائع العولمة، ومن ثم تحقيق أكبر قدر من الفهم. ويهمنا كثيراً ملاحظة موقع المسألة الثقافية، وجعلها أسّاً مركزياً في فاعلية العولمة وحركيتها الاجتماعية. ولئن كان التحديد السابق مهمّاً للعولمة فإننا نرى أن نركز أكثر في بيانها، مع أخذنا بعين الاهتمام ما للعامل الثقافي من تأثير، كما سيأتي.

المقاربة العلمية للعولمة، وضرورة التحديد الموضوعي لدلالاتها وإشكالاتها

ويمكننا أن نحدد **العولمة** بصورة عامة على أنها تعني ذلك الفعل والعملية الحضارية المركبة الشاملة، التي يتم بموجبها فك الارتباط بين الإنسان وإطاره الثقافي والجغرافي والنفسي والأخلاقي والحضاري والسياسي والاقتصادي والتقني القائم قبلها، وإعادة ربطه بمنظومة وعي وواقع ونسق حضاري، يدمجه من جديد في إطار معولم من الصلات والعلاقات والتفاعلات والتعاملات والارتباطات الأكثر كثافة وسرعة وشمولية وتقارباً وتأثيراً وتأثراً بحضور الآخرين الفاعل في الواقع؛ بحيث يصبح للمعلومات والمعارف والعلوم والأفكار والوسائل والتقنيات أخطر الآثار –السلبية والإيجابية– على الفرد والمجتمع والدولة والثقافة والحضارة والسياسة والاقتصاد والأمن والاستقرار العام للإنسان والحضارة والثقافة والوعي المعاصر.

[40] Ibid., p. 7.

إن هذا التوجه إلى عولمة الإنسان والحياة والحضارة له أثر كبير في تفهمنا لحدود دراسة الظاهرة الاجتماعية، التي كانت لا تزال تدرس في إطار مفهوم القبيلة أو الدولة أو المجتمع أو الحضارة وحدة للتحليل، فأصبحت اليوم تخضع لإطار آخر هو الواقع المعولم، وبهذا تصبح وحدة التحليل للظاهرة الاجتماعية هي الحضارة العالمية أو الظواهر المتشابكة ذات التأثير العالمي. وفي هذا الأمر بالذات تكمن الإشكالات الكبرى للعولمة.

فإشكالات العولمة في الحقيقة لا تكمن فقط في كونها عملية تحاول إلغاء تأثير الحدود الجغرافية بين المجتمعات والدول، والتقليص من الحواجز والإجراءات القانونية لانتقال الأفراد والسلع والأفكار والرسائل والوسائل والرموز فيما بين المجتمعات على المستوى العالمي، والتفتيت للفوارق الثقافية والعنصرية التي تمنع الاتصال والارتباط والحوار بين المجتمعات والشعوب، والتقليص من وظائف الدول[41] الحديثة، وحصرها في سياقات ومواقع معينة، والتفكيك للأطر الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وجعلها أكثر ارتباطاً واتصالاً بعوامل خارجية ليصعب التحكم فيها، والنشر والتعميم لمفاهيم الصراع والهيمنة والسيطرة وحقوق الإنسان والديمقراطية والرأسمالية العالمية والاقتصاد الحر والخصخصة وأنماط الحياة الغربية وقيم الرفاهية الغربية وغيرها، فهذه أمور آتية لا محالة معها، وهي مما لا يتم الأمر إلا به، ولكن الإشكاليات الأكثر خطورة في العولمة هي في النوعية الثقافية والسياسية والاجتماعية والتربوية والنفسية والفكرية والقيمية والأخلاقية التي ستنتج بسبب التوجيه الأيديولوجي القائم لقواها وديناميكياتها. وبعبارة أخرى: ما نوع الإنسان والثقافة والدولة والمجتمع والأسرة والتربية والقيم والأخلاق التي نريد أن نعممها ونعولمها ونؤكد مركزيتها وهيمنتها وسيطرتها؟ إن المشكلة لا تكمن في رفض المجتمعات والدول للتغيير والتبديل والتحويل والانتقال من عصر الحضارة إلى عصر الحضارة العالمية، أو من اللاديمقراطية إلى الديمقراطية، أو من الفقر إلى الغنى، أو من الفوضى إلى النظام، أو من البداوة إلى

[41] For further details see, Kenichi Ohmae, *The End of the Nation State*, The Globalization Reader, pp. 207-211.

الحضارة، ولكن المشكلة تكمن في طبيعة ونوع التغير أو التحول المستهدف. والأسئلة الأساسية هنا هي:

هل العولمة تغيير باتجاه مخلوق جديد، وواقع جديد، ووعي جديد، وثقافة جديدة، تصلح وتناسب مختلف الأمم والشعوب والحضارات؟ أو أنها خاصة ومناسبة لمجتمع أو دولة أو ثقافة واحدة مركزية مهيمنة؟

أو أنها تغيير باتجاه عالم دانيال بل صاحب كتاب" نهاية الأيديولوجيا"؟ الذي كان يرى أن نجاح إعادة البناء الناتج من الحرب العالمية الثانية، ومجيء المجتمعات ما بعد الصناعية، ونمو الطبقات ذات البشرة البيضاء، وانتشار العمران، وظهور العلوم السلوكية بلغة فرضياتها ومقاييسها ومتغيراتها ونماذجها التحليلية...كل هذه تعبر عن مجيء عهد جديد للإنسانية؟[42]

أو أنها تغيير باتجاه عالم فوكاياما في كتابه "نهاية التاريخ والإنسان الأخير"؟ الذي يرى أن الرأسمالية والنموذج السياسي للتعددية الليبرالية قد تغلب على فكرة الجدلية التاريخية، وقهرها إلى الأبد؛ بحيث وضعت حداً نهائياً للتاريخ ذاته. وفي هذه الحالة فنحن نشاهد عالمية الديمقراطية الغربية الليبرالية[43] بوصفها الشكل النهائي للحكومة الإنسانية؟[44]

أو أنها تعبر عن عالم صمويل هينتينغتون في كتابه "صراع الحضارات"؟ الذي يرى أن العالم بصورة ما يتشكل من عالمين، ولكن التمييز الرئيس فيه بين الغرب المهيمن حضارياً وباقي البشرية.[45]

---

[42] Daniel Bell, *The End of Ideology: Upon the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties* (New York: Free Press, 1966), 405.

[43] Diamond, Larry. *The Globalization of Democracy*, The Globalization Reader, pp. 246-254.

[44] F. Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: NY, 1992), p. 48.

[45] S. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remarking of World Order* (New York: Simon &Schuster, 1996), p. 36.

– وإلى أي مدى ستدفع العولمة الأديان والثقافات والمجتمعات والدول للتنازل عن قيمها وأساسياتها المعرفية والحضارية والوجودية؟

– وأي المناهج والطرائق والآليات والوسائل التي ستسمح بها العولمة لقهر وإجبار وإرغام كل مجتمع، أو ثقافة، أو دولة تخالف منطقها، أو تتحدى سلطانها، أو تعادي وسائلها، أو تركب قطاراً غير قطارها؟

– وإلى أي مدى ستتنازل العولمة وقواها وقيمها لصالح الإنسان والثقافة والمجتمع والدولة والحضارة الأخرى؟

إن هذه الأسئلة مهمة للغاية، ولكن يبدو أن جوابها في كثير من الأحيان واضح ولا يحتاج إلى عناء البحث الأكاديمي المنهجي، وإنما يكفي الحس الفطري الجماعي للإنسان لتقديم تصور أولي عن الوجهة. فالكثيرون يقولون: إن العولمة تريد أن تركز قوى معينة على حساب غيرها، وتريد أن تخلق مجتمع العشرين بالمئة الغني، والثمانين بالمئة الفقير المعدم، وأن تخلق واقعاً يسير بنظريات الأزمة والمأزق واللعبة المنهجية والألعاب الآلية. وفي الحقيقة هذا الجواب صحيح إلى حد بعيد؛ لأن العولمة وحركتها المعاصرة، وخاصة في جوانبها الأيديولوجية أي عند القوى التي توجهها إيديولوجياً– تتصف:

– بغلبة النـــزعة الأيديولوجية في توجيهها.

– بغياب الانضباط القيمي والأخلاقي[46] في مضمونها ومنطقها.

– بغلبة النظرة الأحادية الانتقائية فيها.

– بتجزيء وحدتها الكلية الشاملة بوصفها قضية حضارية مصيرية للإنسانية كلها إلى قضية جزئية لمصلحة مجموع بشري معين.

– بعدم وضوح مفهومها وفلسفتها ومضمونها وآلياتها وأدواتها وإستراتيجياتها وديناميكياتها لمعظم الدول والمجتمعات العالمية المعاصرة.

---

[46] Kung, Hans. *A Global Ethic as a Foundation for Global Society*, The Globalization Reader, pp. 39-48.

– باعتمادها على القوة والمعرفة والتقنية والتكنولوجيا والمعلوماتية والاتصال والإعلام والاقتصاد والمال والبنوك الدولية، ما لا يملكه ولا يتحكم فيه إلا مجموع بشري معين ومحدد، مثل أمريكا وأوروبا واليابان.

– بمنطقها المبني على المصالح، والغلبة للأقوى، وضرورة اتباع الغالب.

فظاهرة بهذا الغموض والخطر تثير حقيقة تساؤلات كثيرة، وتطرح إشكالات ضخمة على مصير الإنسان والحضارة عموماً. ومن هنا ينبغي لنا أن نتعمق في فهم طبائعها، والنظر في قوانينها وأنساقها بصورة أكثر علمية وموضوعية، بعيداً عن الإغراق في العاطفة والارتجال والانتقائية والاختزال والنظرة الأحادية والتبسيطية، وغيرها من النـــزعات اللامنهجية.

ومن هنا فإن الدراسة الموضوعية العلمية لمسألة العولمة وتعيناتها المعقدة والمتنوعة تستلزم صياغة رؤية شمولية كلية مركبة لها. فمن غير المعقول ولا المنطقي أن تقارب العولمة من الجانب أو المنظور الأحادي التركيز – أي الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو التربوي أو العلمي أو التقني أو التكنولوجي أو المعلوماتي أو الاتصالي الإعلامي أو العسكري الأمني ..– فالعولمة لا ينفع معها إلا المنهج المتعدد المداخل أو المركب أو الحضاري الشمولي، الذي يحافظ على الوحدة المنهجية الكلية للظاهرة. وكذلك من غير المقبول دراسة العولمة بوصفها أيديولوجية أو عملية أو ظاهرة أو مؤسسات أو مشروع أو نظرية أو آليات، بل ينبغي أن تدرس من كل جوانبها بنظرة حضارية شمولية كذلك. كما أنه من غير المعقول دراسة العولمة دون التركيز على جوانبها السيكولوجية، والسوسيولوجية، والأنثربولوجية، والميثودولوجية، والتكنولوجية، والثيولوجية، والبيداغوجية، والتاريخية، والجغرافية، والاقتصادية، والسياسية. وكذلك مستقبلها؛ لأن العولمة اليوم تخلق واقعاً جديداً بكل ما يحمله الواقع المعولم العالمي[47] من معانٍ.

---

[47] Leslie Sklair, *Sociology of Global System*, The Globalization Reader, pp. 70-76.

وبعبارة أخرى: فإن ظاهرة العولمة تعمل على خلق ذلك الفعل التاريخي الإنساني المتصف بتشابك الفاعلين وكثرة الفاعلين وحضور الفاعلين وتأثير الفاعلين وفاعلية الفاعلين، بالإضافة إلى اختصار زمان ومكان[48] وجغرافيا الفعل، والزيادة في قدرات التحكم فيه، والتوقع والتنبؤ به وبمستقبله. إن العولمة اليوم تعمل على عولمة الثقافة والاقتصاد والفكر والسياسة والتقنية والمعرفة والمعلومة والوسيلة والحضارة والتاريخ والجغرافيا والمناهج، ومن ثم فهي تعولم الوعي، مما يستتبع عولمة الإنسان لكي يتأهل للدخول إلى عالم الآخرين، وعالم الخاضعين لقوانين وأنساق العولمة. ومن هنا فإنه من السخف العقلي الحديث عنها بوصفها عمليةً بسيطةً، أو قضيةً عابرةً. بل علينا أن نرصدها كمركّب من أشياء وأفكار وظواهر ونظريات وقوانين وآليات متداخلة ومتنافرة ومتفاعلة. وفي العولمة من كل شيء مثل؛ ففيها الأيديولوجيا والحضارة، والهيمنة والاستعمار، وفيها الانفتاح والحوار والتعاون، وفيها الصراع والتدافع والهيمنة، وفيها الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وفيها الظلم والتعسف والقهر، وفيها الصحة والغنى والرفاهية، وفيها الفقر والمرض، وفيها التلوث والتصحر، كما فيها الجمال والإتقان...وهكذا تجمع العولمة المتناقضات على أساس هذه الطبيعة الراهنة لها ينبغي لنا مقاربتها، والاستفادة منها، وتوجيهها لصالح أكبر عدد ممكن من الناس.

سادساً: العولمة من المقاربة العلمية إلى المقاربة الحضارية، وضرورة المنظور الحضاري العالمي

مهما يكن الأمر بالنسبة للمقاربتين الأيديولوجية والعلمية الأكاديمية، فإن الأهمية تكمن في أن تظهر مقاربة أكثر عمقاً وشمولاً ووعياً بطبائع التاريخ وتوجهات الوعي الإنساني، بعد أن دخلت البشرية عصر العالمية تحت ضغط المنجزات العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والأيديولوجية وغيرها. ولا يمكن الحديث عن

[48] David Harvey, *Time-Space Compression and the Rise of Modernism as a Cultural Force*, The Globalization Reader, pp. 134-144.

التوجيه الحضاري للعولمة، أو التنظير للعولمة الحضارية بمعزل عن القيم والأخلاق والدين والوعي والضمير الحي والثقافة الإنسانية، كما لا يمكن تحقيق أي تقدم باتجاه التوجيه الحضاري للعولمة بمعزل عن الحديث عن الإنسان والثقافة والاجتماع البشري والحوار الحضاري وغايات الوجود الحضاري للإنسانية. وكما يقول هادي المدرسي: "لو كان علينا أن نفكر على المستوى الكوني -الأمر الذي يبدو ضرورياً- فلا بد أن نهتم بحل مشكلات الأرض كلها"[49] فقد وسعت مفاهيم العالمية الجديدة والعولمة ووسائلهما وعي الإنسان، وأدخلاته في عالم الآخرين، وفتحتا له الباب واسعاً ليعيد اكتشاف نفسه وذاته وثقافته، ولكن هذه المرة في حضور وفاعلية ووجود الآخرين في عالمه هو، وبشكل يومي مباشر ومتسارع. فهو اليوم سيعيد اكتشاف ذاته وشخصيته وحضارته وثقافته وهي في عمق التفاعل والتعامل والتدافع المباشر مع قيم ومفاهيم وذوات وهويات وثقافات وحضارات ولغات ورموز ومنجزات واقتصادات وسياسيات المجتمعات الأخرى.

إن هذا الاكتشاف العالمي المهم سيولد -مع مرور الوقت- الإنسان العالمي القادر على الوعي في مستوى عالمي حين يكون فرداً ثقافياً وحضارياً في مجموع حضاري ضخم ومعقد وحساس. إن هذا التوجه نحو العالمية، وإن هذه الوحدة في المشكلات الإنسانية، وإن هذا التلاحم والتلاقي والاشتراك في تحمل مسؤولية المصير البشري ومسؤولية الحضارة، إنما هو ثمرة لهذا الواقع العالمي الجديد، ونتيجة منطقية لتكرس قيم ومفاهيم الحضارة العالمية في واقعنا الاجتماعي.

والقضية الكبرى هنا هي قضية المواجهة الحضارية الكلية العالمية للمشكلات الإنسانية. فلم يعد ممكنا مطلقاً لأي مجتمع أن يستقل بعلاج مشكلاته وحده، أو الانغلاق على ذاته، بل أصبح ضرورياً له أن يحضر في دوائر الوعي المختلفة انطلاقاً من دائرة الوعي الذاتي إلى دائرة الوعي الأسري، فالمحلي، فالقومي، فالإقليمي، فالدولي، فالإنساني، فالعالمي، فالكوني. يقول بن نبي: "إن من الواضح أن الضمير الإنساني في القرن العشرين لم يعد يتكون في إطار الوطن والإقليم، وهذا مع اعترافنا بأن أرض

[49] المدرسي، هادي. **لئلا يكون صدام حضارات**، بيروت: دار الجديد، 1996، ص 49.

المولد التي يعيش عليها الناس تمدهم بالبواعث الحقيقية لمواقفهم العميقة، غير أن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية. فالثقافة أصبحت تتحدد أخلاقياً وتاريخياً داخل تخطيط عالمي"[50]

إن هذا التخطيط العالمي، وهذا المستوى العالمي، وهذه الدائرة العالمية أصبحت ذات أثر قوي في حركة الوعي الحضاري والثقافي لمختلف المجتمعات والثقافات. وما لم يرتفع إنسان هذه الثقافات إلى هذا المستوى العالمي من النظر، وما لم يدرك كيف أصبح مفهوم الحضارة العالمية مؤثراً في حياته الخاصة والعامة، وفي وجوده الشخصي والثقافي، وفي تكوينه الروحي والعقلي، وفي سلوكه العقدي والفكري؛ فإن هذا الإنسان سيبقى دوما عاجزاً عن إدراك ما يحدث في هذا العالم الجديد من حوله من قضايا وحوادث كبرى. إذ لا بد أن يمتد وعي الإنسان ليكون حاضراً في دائرة الثقافة والواقع العالمي. يقول مالك بن نبي:

"فالمستوى الشخصي للمسلم، حتى ولو نما نمواً نسبياً، يمكن أن يبدو في حالة تضاؤل، بقدر ما ينمو تطور الآخرين بسرعة أكثر. والواقع أن الوعي الاجتماعي الذي كان يتكون منذ حين في دائرة محدودة أمام منظر محدد عموماً، بنطاق بلاد معينة هي الوطن، قد أصبح يتكون اليوم في إطار أكثر امتداداً بدرجة لا تضارع. وفي منظر أكثر انفساحاً. كذلك فكما هي الحال بالنسبة للطفل وللأسباب نفسها يحصل امتداد المستوى الشخصي للفرد: امتداد حضوره إلى مدى أبعد من مقره، فوسطه، فبلاده، وهذا التوسع في مستواه الشخصي يكون مقياساً مباشراً لدرجة تحضر هذا الوسط، حيث لا يحيا الفرد مع أهله ومواطنيه فحسب، ولكن مع عدد أكبر من الآدميين... بقدر ما يعي فيه الفرد المولود في الدائرة رقم 1 والدائرة رقم 2، أعني مشكلات العالم العربي واتجاهاته وآماله، بقدر ما يكتمل وعيه لذاته وينمو مستواه الشخصي، وبقدر ما يتخطى دائرة داخلية إلى أخرى خارجية بقدر ما ينمو عالم أفكاره، وعندما يبلغ وعيه الاكتمال المتطابق مع الدائرة العالمية يكون مستواه الشخصي قد بلغ أقصى اكتماله،

[50] ابن نبي، مالك. **مشكلة الثقافة**، دمشق: دار الفكر، 1984، ص121.

بحيث ينبث حضوره في سائر أجزاء المعمورة."[51]

لقد أضحى جلياً تماماً أن الواقع العالمي أصبح في حد ذاته واقعاً حيوياً مؤثراً وواقعاً حاضراً في وجود كل مجتمع، وكل ثقافة، بقطع النظر عن مدى استيعاب الثقافات المختلفة لهذا الوجود الجديد، ولهذا الحضور الجديد لقيم الواقع العالمي، والثقافة العالمية، والوجهة العالمية في التاريخ المعاصر للحضارة البشرية. وعلى حد تعبير المدرسي "فالعالم أصبح أصغر من أن يتحمل سقفين للحياة، ومصيرين للبشرية. فإما أن ننجو جميعاً وإما أن نغرق جميعاً."[52]

ولكي تُوجه العولمة نحو الحضارية الشاملة للإنسان المعاصر، بما في ذلك الإنسان العربي المسلم، ينبغي أن ندرك الرسالة الكبرى التي تنتظر هذا الإنسان وما يحمله من تراث ودين وتاريخ وحضارة وثقافة. ولكن أي توجيه للعولمة نحو هذا الاتجاه يقتضي أولاً أن ندرك طبائع العولمة، وندرك طبيعة الواقع العالمي المعولم، وندرك طبائعنا العربية الإسلامية، وندرك مشكلاتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والنفسية والمعرفية، ومن هذا الإدراك يتحرك المسلم ليدرك الآخر، ويعيد اكتشاف ذاته في صلته مع الآخرين حين يلتقي معهم في لحظة العولمة. إن تفهمنا لهذه القضايا، ولطبائع الأشياء هو الذي سيمكننا من تحقيق التوجيه الحضاري المناسب والصحيح للعولمة، بعيداً عن ردود الأفعال والارتجال والعاطفة والسجال. فإذا ما تيقنا أننا أصبحنا نُعولم ونتأثر بمخاطر العولمة وإيجابياتها؛ فإن أهم واجب أمامنا اليوم – كعرب ومسلمين نحس أننا نملك قيماً وتراثاً وثقافة ومفاهيم عالمية – هو أن نوصل أولاً قيمنا العالمية لأنفسنا كممارسة وثقافة ووعي، ثم نسعى لنبلغها للعالم الذي يعيش من حولنا، ولربما يكون هذا العالم في أمس الحاجة إلى قيم وأخلاق الرشادة والتسامح والتكريم والتوازن والعالمية الحقة.

---

[51] ابن نبي، مالك. **فكرة كومنولث إسلامي**، ترجمة الطيب الشريف، ط2، دمشق: دار الفكر، 1990، ص67-68.

[52] المدرسي. **لئلا يكون صدام حضارات**، مصدر سابق، ص69.

الخاتمة

لقد تبين من خلال صفحات البحث أن ظاهرة العولمة ما زالت بحاجة إلى دراسات علمية موضوعية تتمكن من تفهم طبائعها وتفسير ديناميكياتها وآلياتها، كما أوضح البحث أن هناك حاجة إلى تطوير منظور حضاري متكامل يساعد على التوجيه الحضاري للعولمة ولقواها بغية تجاوز منطقها الأيديولوجي الذي يوظف لا لتحقيق مصالح الإنسان والحضارة الإنسانية عموماً، ولكن لمصالح مجموعات بشرية معينة لها مقاصد وأهداف من العولمة بمنطقها الحالي.

ومن أهم النقاط التي أبرزها البحث وأكدها مسألة توظيف العولمة في توسيع وحدات تحليل الظواهر الاجتماعية والإنسانية المعاصرة؛ حيث أشار البحث إلى التأثير الإيجابي والمنهجي الذي أحدثته العولمة في وحدة تحليل الظواهر الاجتماعية والإنسانية ضمن أنساق هذه العلوم وفي إطار النموذج الحضاري الغربي. فقد أثبتت العولمة أن الدولة، أو المجتمع، أو حتى الحضارة بوصفها وحدة للتحليل، لم تعد في كثير من الأحيان قادرة على تفسير بعض الظواهر الإنسانية والاجتماعية ذات الآفاق الكونية والعالمية العامة.

ومن ثم فإن العولمة بدأت وبقوة تدخل مجالاً تحليلياً أكثر شمولاً للظواهر الاجتماعية، وهو مجال الحضارة العالمية كلها في نطاق التحليلات الاجتماعية والإنسانية. وهذا التوسيع لمجال الدراسة ولوحدة التحليل الحضاري والاجتماعي والإنساني ستكون له آثار كبيرة على العلاقات الحضارية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعلمية لمختلف دول وحضارات العالم.

ومن هنا فإن البحث الحالي يقترح تشكيل مخابر وورشات بحث متخصصة في تأثيرات العولمة على مستوى نسق العلوم الاجتماعية والإنسانية، بهدف تشكيل معارف جديدة تسهم في تشكيل الثقافة العالمية والمجتمع المعولم الذي يؤمن بالقيم الحضارية، وبالمصالح الإنسانية الحضارية المشتركة. كما يدعو البحث إلى ضرورة تعميق مناهج البحث في مسألة التوجيه الحضاري للعولمة، أو ما سمي في ثنايا البحث بالمقاربة الحضارية للعولمة، بوصفها مدخلاً ومنظوراً مهماً لتحقيق الاستفادة القصوى والإيجابية من العولمة وفرصها المتاحة، وتجنب كوارثها ومخاطرها الأكيدة.